

مشكلات النقد الجزائري المعاصر

Problems of contemporary Algerian criticism

زكريا مخلوفي *

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الارسال

الملخص:

إن هناك فرقا كبيرا بين النقد الأدبي في صيرورته التاريخية وبين النقد باعتباره علاقة فنية ذاتية وموضوعية؛ وإن كانت الحركة النقدية. أياً كان جنسها وانتماءؤها. لا تتشكل إلا في وعاء زمني مكاني في إطار ظروفها التاريخية والاجتماعية والأدبية؛ والفنية. ولعل هذه الفكرة تطرح علينا أسئلة عدة؛ من أهمها:

-هل استطاع النقاد العرب عامة و الجزائريون خاصة أن يشكلوا ملامح نظرية نقدية تمثل خصائص أدبهم صورة ودلالة، أو شكلاً ومضموناً؛ ووظيفة وهدفاً؟ إلى أي مدى استطعنا. نحن المحدثين. أن نحقق تطوراً نوعياً في كل ما ورثناه بما فيه الإنتاج النقدي؟ وكيف تفاعلنا معه؟ وكيف مارسناه في نقدنا؟ ومن ثم كيف تلقفنا الثقافة الغربية الحديثة الوافدة بما فيها الثقافة النقدية؟ ومناقشة هذه الأسئلة ستشكل مدار بحثنا هذا.

الكلمات المفتاحية: النقد الجزائري، نظرية نقدية عربية، الخصوصية الحضارية

Abstract:

There is a big difference between literary criticism in its historical process and criticism as a subjective and objective artistic relationship. . Perhaps this idea raises several questions for us. one of the importants:

- Were the Arab critics in general and the Algerians in particular able to form features of a critical theory that represent the characteristics of their literature in image and significance, or in form and content? function and purpose? To what extent have we - the modernists - been able to achieve a qualitative development in everything we inherited, including monetary production? How did we interact with him? And how did we practice it in our criticism? Then, how do we receive the modern Western culture, including the critical culture? And discussing these questions will form the orbit of our research.

Keywords: Algerian criticism, Arabic critical theory, cultural specificity

مقدمة:

إن الحديث عن النقد الأدبي في الجزائر؛ يضم قضايا متعددة، لعل أبرزها قضية الوعي النقدي ومدى تمثله وتجسده في الممارسة، و الطرح الموضوعي لهذه الإشكالية النقدية طرح شاق تعترضه الانزلاقات الفكرية، التي تحكم سواء بوعي أو بغير وعي، المنهج البحثي في الممارسة النقدية، فالنقد استعمال منظم للتقنيات غير الأدبية، ولضروب المعرفة، في سبيل الحصول على بصيرة نافذة في الأدب، فالنقد الجزائري المعاصر عرف تحولاً في المفاهيم التي صارت غير قابلة وغير قادرة على مسايرة العصر ومواكبة تغيراته وتطوراته السريعة ومقتضياته، ولذلك فإن هذه الدراسة، تقتضي منا إزالة كل ما يمكن أن يحيط به من لبس أو غموض، وبالتالي، لابد من تحديد دقيق لحدود إشكالية النقدية في الجزائر الأمر الذي يُحتم علينا معرفة الإشكال الذي نعاني منه وتشخيصه، بغية الوقوف عليه والخروج بالنقد والإنتاج الأدبي عامة، من دائرة الاجترار والتقليد الميت، التطبيع ألا عقلاني، إلى دائرة التصنيف العالمي ومراتب أرقى، لنصل إلى نقد بناء يسعى إلى معالجة الآثار الأدبية علاجاً منظماً، يكشف عن أفكارها وقيمها، وبجيب عن شتى الأسئلة التي تدور حول الصلة بين الأدب وحياة الأديب وعلاقته بالمجتمع.

أسئلة لابد من الإجابة عنها:

إن هناك فرقا كبيرا بين النقد الأدبي في صيرورته التاريخية وبين النقد باعتباره علاقة فنية ذاتية وموضوعية؛ وإن كانت الحركة النقدية . أياً كان جنسها وانتماءؤها. لا تشكل إلا في وعاء زمني مكاني في إطار ظروفها التاريخية والاجتماعية والأدبية؛ والفنية. ولعل هذه الفكرة تطرح علينا أسئلة عدة؛ من أهمها: (1)

-هل استطاع النقاد العرب عامة و الجزائريون خاصة أن يشكلوا ملامح نظرية نقدية تمثل خصائص أدبهم صورة ودلالة، أو شكلاً ومضموناً؛ ووظيفة وهدفاً؟

-إلى أي مدى استطعنا .نحن المحدثين .أن نحقق تطوراً نوعياً في كل ما ورثناه بما فيه الإنتاج النقدي؟ وكيف تفاعلنا معه؟ وكيف مارسناه في نقدنا؟ ومن ثم كيف تلقفنا الثقافة الغربية الحديثة الوافدة بما فيها الثقافة النقدية؟

-هل الواقع الذي نعيش فيه يشكل لدينا عوامل إحباط مستمرة تمنعنا من الوصول مستقبلاً إلى حركة نقدية عربية متقاربة الخيوط والخصائص والأهداف؛ متعاونة في تكوين الرؤية الشمولية العربية؟... أم هل سيبقى التوزع البيئي الجغرافي لأبناء العربية يعزز روح الانفصال، على الرغم من أنهم يكتبون نقدهم وإنتاجهم الفكري والفني بلغة واحدة، على الأغلب؟

إن الظروف الموضوعية والذاتية التي تحيط بحركة النقد العربي لم تسمح حتى الآن بتشكيل رؤية نقدية موحدة وواضحة المعالم على وجود الانتماء للثقافة والجنس الواحد غالباً، فالحركة النقدية العربية الجزائرية تتقاذفها رياح التقليد؛ إما للموروث والتمسك به، وإما للآخر الغربي الذي أنتج حركاته النقدية وفق حياته وفلسفته وأدبه على شدة تنوعها بين فرنسا وأمريكا على سبيل المثال. (2)

وبناء على ذلك فإن البحث عن زمانية أو مكانية تكوين حركة النقد الحديث عند النقاد العرب عامة و النقاد الجزائريين خاصة يكاد يكون ضرباً من المستحيل؛ ليس باعتبار التوزع الجغرافي، أو التفاوت الثقافي فقط وإنما باعتبار أن أكثرهم لا يزال يتمسح بذيول الثقافة الغربية ومذاهبها الأدبية واللغوية والأسلوبية والنقدية.

المبدعين منهم من مرتبة التقليد إلى مرتبة الإبداع، وصارت مادة استلهاهم للآخرين من بعد. فالعاقل من ينتفع بما لدى الثقافات الأخرى دون أن تأخذه مظاهر الدهشة ومن ثم الاستلاب.

فقد قام الأجداد بعملية انزياح ثقافية عظيمة شملت جوانب عديدة منها، ومن ثم أثرت في أساليبهم ومفاهيمهم... فازدادت غنى وارتقاء دون أن يفقدوا شيئاً من خصائصهم؛ بل إن ثقافتهم العربية ظلت الأصل والمركز الذي يدورون حوله، على عكس ما يشهده العديد من أشكال خطابنا الثقافي والأدبي والنقدي...

ولعل الخطاب النقدي العربي يواجه حالة مشابهة لما واجهه من قبل عند الأجداد؛ إذا أهملنا تجاهل بعض أعلامه للتراث. لذا عليه أن يعي أن الجديد لم يستطع أن يذوب في القديم، وأن القديم لم يمت إلى غير رجعة، فالتراث مادة للثراء والانطلاق؛ إن لم نغلق عليه، أو نبقي عند حدوده. فهو مادة فعل وتغيير إن أحسننا التفاعل معه؛ واستوعبنا حركة الحداثة وما بعدها.

ومن هنا فإننا نقف موقف رفض فيما انتهت إليه حالة الخطاب النقدي عند بعض مفكرينا وأدبائنا، ومثقفينا، فهو بين حالين إما الاتباع والتقليد، وإما الانغلاق والتعصب، وقل من جعل التراث منبعاً تجديدياً، ومادة يلجأ إليها إذا احتاج إليها دون أن يغلق عينيه عن كل ما يفيد من أي مصدر وفد إليه. فتجليات المنهج النقدي التكاملي التي تبيننا عناصرها في الفصل الأول لا تسمح بحالة الانغلاق، ولا بحالة التبعية.

أما حالة الاتباع فيمثلها فئة انشدت إلى الغرب وعزفت عن تراثها الأدبي والنقدي واللغوي، والديني... وأنكرت أن يكون هذا التراث قد قدم إسهاماً يذكر في أي وجه من وجوه النشاط البشري. فكل رأي نقدي، أو فكري، وكل منهج أدبي إنما هو

لهذا فالتداول النقدي المعروف اليوم. مثلاً. للإنتاج الشعري أو الروائي أو المسرحي، بل النقدي والبلاغي واللغوي إنما يشكل في جزء منه إعادة صياغة إنتاج الآخر فانتفى الإبداع منه تارة وأصيب بنزعة التقليد أو التكرار تارة أخرى، ولعل ذلك يكمن في أن الحركة الأدبية نفسها ما تزال ممزقة الأوصال، وذات أدوات قديمة، أو مناهج تابعة، مما أدى إلى ضعف مردودها وعجزها عن التأثير فضلاً عن أحاديثها الأنانية، إن الإشكال المعرفي والمنهجي الذي يعترض هؤلاء الدارسين هو كيفية المواءمة بين النظريات النقدية الغربية الحديثة سواء كانت سياقية أو نسقية وبين التراث الإبداعي العربي، باعتبار أن تلك النظريات النقدية ولدت في بيئة اجتماعية وثقافية مختلفة اختلافا جذريا عن البيئة التي نشأ فيها الخطاب الإبداعي العربي، ثم أليس في تراثنا النقدي القديم ما يغنينا عن التهافت على ما يبدعه الغرب من نظريات نقدية؟ وكيف يمكننا الاستفادة من الموروث النقدي العربي القديم وتكييفه مع ما وصلت إليه أحدث النظريات النقدية الغربية؟ (3)

إن الخطاب النقدي الحديث عند العرب يعيش اليوم حالات تبعية، فضلاً عن أنها غير منظمة ولا متعاونة، فهو لا يزال ينهل من النقد الغربي ويحتذي به حذو القذة بالقذة، ولا يزال النقاد العرب يتدربون نقدياً لإيجاد ما يسمى بنظرية نقدية قائمة على أسس تختص بهم (4)، وإن لم تتحقق حتى الآن؛ إذ لا زالت غائبة لأنها ما زالت تغلب التنظير على التطبيق؛ والإفادة من كل تقنيات الغرب الإجرائية والنقدية.

وهذا أمر لا يعيبه أحد، ولا ينتقص من مقومات الشخصية القومية والثقافية... فأجدادنا قد عززوا مبدأ المثاقفة مع الآخر؛ فنهلوا مما لديه وطوعوه لحساب ثقافتهم... فتحولت الحضارة العربية بفعل

للغرب؛ وليس للتراث أي فضيلة. فقد طُمس من ذاكرة أصحاب هذا الاتجاه أو أنهم غيبوه، في أحسن الحالات؛ علماً أن الخطاب التراثي يظهر بأشكال شتى في أنماط الخطاب النقدي المعاصر؛ إذا لم نقل إنه جزء أصيل ومؤثر فيه. فما من حصيف ينكر أن يكون التراث ممتداً في الحداثة، أو ما بعد الحداثة. باختلاف الأسلوب لا يعني اختلاف الجوهر؛ فالجوهر يظهر بأشكال جديدة قريبة أو بعيدة عن الأصل. ولعل جهل هذه الفئة بتراثها وبالثقافة الغربية مجتمعة؛ لأنها ذات اتجاه أحادي في أغلب الأحيان تنتمي إلى هذا المكان أو ذلك، أو إلى هذا المذهب الفكري أو السياسي أو ذاك جعلها تבלبل الفكر العربي عامة، والخطاب النقدي والأدبي خاصة. فنقلت إلينا نتاج الغرب. وهذا النقل يحسب لها. ولكنها ضيعت الحقيقة في الكم الهائل من الترجمة غير الموحدة، إذا أحسنا الظن بها وقلنا: إن كثيراً من ترجماتها متناقضة؛ إما لعدم فهم طبيعة الأفكار المنقولة بدقة؛ وإما لعدم إتقانها لمنهج الغرب ولغته؛ فضلاً عن جهلها بتراثها. ولا شيء أدل على هذا من اطلاعنا على ترجمتهم لمصطلح (التناسية) فهو يزيد في ترجمة من سعى إلى نقله لتعريفنا به على عشرين مصطلحاً فهو النصوصية، وتداخل النصوص، والنص الظل؛ والمزاح والمفقود والغائب؛ وهلم جرا. فهل السبب يرجع إلى تبعية ثقافتنا للغرب أو يكمن في تجربة هذه الفئة غير الدقيقة؟، ولعله في كليهما معاً... ومن ثم فإن إجراءاته النقدية على النصوص العربية ليست إلا إجراءات غربية خالصة يصبها أصحابها عليها؛ بحجة تطوير النقد العربي... وأما حالة الفئة الأخرى فقد أخذتها الحمية والغيرة على التراث وجعلت الغربيين مجرد نقلة لما لدينا من تراث، ولاسيما الديني منه واللغوي والفلسفي؛ وكأنهم لم يضيفوا شيئاً يستحق منا العودة إليه.

ولعل الباحث الرصين أكرم ضياء العمري. على إعجابي به. يمثل هذه الفئة حين أرجع المناهج الغربية للعلوم الإنسانية إلى أرضية إسلامية؛ وكذا فعل عبد الملك مرتاض في نظرية التناسل حين حصر هذه النظرية بمفهوم السرقات الأدبية المعروفة في النقد العربي القديم وجعل أصولها في آراء العرب القدماء (5) وهنا لابد من تسجيل الإعجاب الشديد بما فعله بعض النقاد إذ انفتحوا على الثقافة الغربية ولم يغلقوا عيونهم على التراث فدورة الحضارة الإنسانية مستمرة؛ وعملية المثاقفة قائمة إلى أن يبعث الله الأرض ومن عليها. إن مشكلة النقد الأدبي في الجزائر هي غياب منهج نقدي محدّد واضح، يتوافق عليه النقاد ليكون أداة وحيدة للتعامل مع النص الأدبي، لإعطاء فكرة صحيحة عن مستوى التجارب الأدبية لكل مبدع. وهذه المشكلة لا تقتصر على النقد الجزائري، فهي تُعدّ من أبرز مشكلات النقد العربي المعاصر، لتشابه ظروف ومستوى الإنتاج الإبداعي عند العرب عامة. والملاحظ، من خلال تتبع مسار الحركة النقدية في الجزائر، أن هناك عدّة اتجاهات نقدية، لعلّ من أبرزها ثلاثة اتجاهات أو مناهج، أوسعها انتشاراً في الصحافة هو النقد الانطباعي، وهو نقد يقوم على الحسّ الذوقي أو الجمالي، إن صحّ التعبير، وهو اتجاه لم يعد صالحاً للحكم على الإنتاج الأدبي. الاتجاه الثاني هو الاتجاه الأكاديمي البحث، وهو منهج جامد، غالباً ما يُستخدم استخداماً ميكانيكياً ذمياً، ينتفي فيه أي جهد لاستيعاب أبعاد النص موضوع النقد. (6) أما الاتجاه الأخير، فنجدّه خاصة في النقد الشعري، وهو يستخدم المنهج العربي القديم، رغم بعد الشقّة بينه وبين التجربة الأدبية المعاصرة، وهو يستخدم مصطلحات نقدية انتهت التواصل

وبعض النقاد تراهم يفصلون النصّ على حجم المناهج النقدية، فيخضعون كل شخصية روائية، ولو كانت في عمر الأطفال، إلى منهج إيديولوجي مُعَيّن، ثم يصدرّون أحكامهم التي لا تقبل النقاش، معتبرين أن أفكار هذه الشخصية الطفولية متخلّفة، لأنها لم تأت كثرة للتناقض الطبقي المحرّك للتاريخ. وما ينطبق على هذه الشخصية الروائية ينطبق عندهم على الكاتب والرواية، فيصيران، معاً، علامتين لمحدودية الرؤية والوعي والسقوط الفكري.

وهذا غير صحيح، جملة وتفصيلاً، فإذا كانت الرواية تجسيدا فنيًا لمرحلة ما، فمناذجها البشرية البسيطة، التي يحاول الكاتب من خلالها أن يعالج قضية من قضايا المجتمع، هي نتاج مجتمعهما، والرواية الناجحة هي التي تُوفّق في معالجة واقع هذه المرحلة، من خلال رؤية فنية ثاقبة ونماذج بشرية تعبّر بصدق عن هذا الواقع. وإذا كانت بعض النماذج تتميز بمحدودية الوعي والرؤية، فلأنها ببساطة نتاج هذا الواقع، ويخطئ الكاتب إذا وضعها في مكانة غير مكانتها الحقيقية، لأنها ستكون حينئذ نتاجاً وهمياً لواقع غير موجود أصلاً. وهنا لا بدّ من القول إن هناك أمراً غالباً ما لا يأخذه الناقد بعين الاعتبار، وهو سنّ الكاتب عند مباشرته كتابة العمل الأدبي، لأن نظرة الكاتب لقضايا المجتمع في سنّ العشرين أو ما قبلها تختلف عنها عندما يبلغ سنّ الثلاثين والأربعين والخمسين والستين، فعقدٌ من الزمن كفيل بأن يغيّر نظرة الإنسان لكثير من القضايا، ولا يُعدّ هذا عيباً ينقص من قيمة العمل الأدبي، بقدر ما يمثّل عاملاً أساسياً في صدقية فكر ووعي شخصياته الفنية.

وإذا كانت الرواية تجسيدا لمرحلة ما في تاريخ مجتمع من المجتمعات، فهي أيضاً تجسيد

معها منذ أجيال عديدة. المشكلة، إذن، هي أن كل هذه الاتجاهات والمناهج غير صالحة لإبداء رأي صحيح، شكلاً ومضموناً، في الأعمال الأدبية المعاصرة، لسبب بسيط وهو اختلاف المناهج الغربية جذرياً، مصطلحاً ومحتوى، عن طبيعة تجربة الكاتب الجزائري، وبُعد الشقّة بين التجربة الإبداعية المعاصرة - وخاصة الجزائرية لقربتها من التيارات العالمية - وبين النقد العربي القديم الذي لم يعد قادراً، للأسباب المذكورة، على مواكبة العصر، وما يؤكّد هذا الرأي هو تناقض آراء النقاد واختلاف تفسيراتهم وتصوّراتهم ومفاهيمهم حول نص أدبي واحد. وهذا طبيعي، طالما أنهم ينتمون لتيارات فكرية ونقدية مختلفة، ولكن ما هو غير طبيعي، حقاً، هو أن يكون النص الأدبي نفسه بالغ الجودة عند ناقد ما، وبالغ السوء عند ناقد آخر، ومتوسط المستوى عند ثالث. ولا شك أن تناقضات الآراء واختلاف التفسيرات حول العمل الأدبي الواحد من الأسباب التي تضعف موقف النقد عندنا، وتضعه موضع شكّ إزاء القارئ والكاتب.(7) وهذا يطرح مشكلة بالغة التعقيد، فأغلب النقاد يفرضون رؤيتهم الخاصة على أعمال أدبية متعدّدة الرؤى متنوّعة الأشكال والأساليب والرموز، كأن يفرض ناقد مثلاً منهجاً إيديولوجياً معيّناً على عمل أدبي ما، فيجعل مركز اهتمامه الإيديولوجيا وحسب، غافلاً - عن عمد أو غير عمد - عن الرؤية الفنية والأشكال الجمالية التي يحتويها العمل الأدبي. وهذا خطأ فادح لا ينبغي التساهل معه، لأن الناقد، في هذه الحالة، سيستخدم منهجه استخداماً خاطئاً، وسيؤدّي عمله هذا، حتماً، إلى الخطأ في الحكم، والعجز عن كشف عالم النص الأدبي بما يحتويه من أفكار وجماليات ورموز ولغة.(8)

لعواطف وأحاسيس وأفكار ووعي صاحبها في مرحلة ما من عمره، لأن أي روائي يكتب - على سبيل المثال لا الحصر - عن موضوع المرأة وهو في العشرين من عمره أو دونها ستختلف نظرتة، تماماً، عندما يكتب عن الموضوع بعد مرور عقد أو أكثر من الزمن. وهذا طبيعي ومنطقي، ومنه يستمدّ الأدب صدقيته الفنيّة، ودونه سيكون العمل الأدبي كلاماً إنشائياً يفتقد أهمّ مكوناته الأساسية. ومن هنا، فإنّ كل حديث عن أدب دون ربطه بهذا العامل، وبمعزل عن الواقع الاجتماعي، هو حديث بعيد عن الفهم والوعي للعملية الإبداعية.

كلّ ذلك يؤكّد حاجتنا لمنهج نقدي محدّد يكون بديلاً للمناهج المستخدمة حالياً، وهذا المنهج يجب أن يلتزم بأسلوب جديد في الكتابة النقدية، مغاير للنزعة الأكاديمية الجامدة والمناهج الإيديولوجية المستعارة والنقد العربي بمصطلحاته التي تجاوزها الزمن. لا أعني بهذا أن على النقد أن يكون دون منهج، فلا يوجد نقد دون منهج محدّد واضح يهتدي به الناقد إلى عمق العمل الأدبي واستيضاح محتواه وسبر أغواره. وطالما أننا لا نستطيع نكران تراثنا النقدي وحذفه بجرّة قلم، لأسباب موضوعية معروفة، ولا الاستغناء عن التجارب العالمية المعاصرة في الكتابة الإبداعية والنقدية، فالمطلوب في رأيي هو إعادة صياغة تراثنا النقدي على ضوء الإنجازات العلمية المعاصرة، بما يؤديّ إلى استنباط منهج نقدي جديد يقوم على التلاقح بين التراث والمناهج المعاصرة. وإلى أن يرى هذا المنهج النور ويجد طريقه إلى التطبيق، وهي مهمّة ليست بالسهلة، أرى أن على الناقد، الذي غالباً ما يحاول أن يحوّل منهجه التطبيقي إلى منهج صارم، أن يجعل من العمل الأدبي مادّة الأساسيّة دون التقيّد بالمناهج

والمصطلحات النقدية، والنفاذ إلى أعماق النص لاستخلاص جواهره وكنوزه، لأن قيمة العمل العظيمة تكمن فيه، باعتباره كائناً حياً ينطوي على الجمال والقبح، وعلى الناقد أن يرصد ذلك لتأصيل الجميل وتعرية القبيح، لتأصيل ما هو جوهري لا يزول وما هو عارض وجزئي لا يعبر عن ثقافتنا الأصيلة. (9)

فيمكن أن نلخص فيما يلي تلك المشكلات، ونصنفها على حسب طبيعتها:

- في الوقت الذي أجده قد استفاد من خلال الانفتاح على قيم الأخر، وثقافته وتطلعاته، إلى حد التطبيع الفكري، والتقليد للمنتج الغربي، الذي يمثل معايير النقد العالمي، والذي لا يتمثل في شيء من ثقافتنا، أو مورثنا، أو حتى واقعنا الذي يعج بالتناقضات مع التأصل والثقافة الغربية، أوحى مراعاة الصراع الذي نتخبط فيه؛ بين موروث يحاول أن يفرض نفسه، وجديد مرغوب فيه، ويتضح خصوصاً هذا الصراع والتخبط، في التنوع والتعدد في المفاهيم بين مصطلحات مستمدة من الموروث الشرقي وأخرى مستوردة من المفهوم الغربي، وثالثة ابنة للمنطقة، كما هو جلي في الدراسات النقدية الأكاديمية، والتي تمثل أكبر منتج للعملية النقدية في الجزائر. (10)

- وقد تكون المشكلة عندنا، ذات طبيعة أخرى، تتجسد في قلة المهتمين بالمجال النقدي مقارنة بحركة الكتابة الإبداعية والتأليف، إذ باستثناء جهود محمد مصايف وعبد الله ركيبي التي بقيت في حدود المدرسة التقليدية، وبصرف النظر عن الدراسات الأكاديمية التي لم تر النور بعد، فإن وجوهاً قليلة جداً يمكن أن يعوّل عليها مستقبلاً، إذ أن الأدبيين لا يقبلون على المحاولات النقدية، وإذا هموا بها، وأقبلوا عليها في بداياتهم، فإنهم سرعان ما ينصرفون إلى كتابة القصة أو الرواية

إن فرض أي منهج بالقوة على خطاب أي عمل أدبي عربي، كفيل بتكريس عملية أومعالجة نقدية منحرفة، ومن شأنه كذلك أن يسفر عن لغة واصفة عقيمة، ومن المؤكد أن أي عمل أدبي نابع من صميم البيئة العربية يظل مغترباً، بل ويتم إلغاؤه وطمس أسئلة الذات الكاتبة والمنتجة له، عندما يصير تباهي الناقد العربي بالمفاهيم والمناهج النظرية الغربية غشاوة سميكة، تحول بينه وبين الاهتمام بالعمل الإبداعي، والإنصات إلى الأصوات والأصداء المترددة فيه، مما يجعله بعيداً كل البعد عن تقديره حق قدره. (15)

- الاعتبارية في توظيف المصطلحات، ذات المحمولات الفلسفية والأدبية، كاستعمال الحداثة مرادفاً للحديث، وعدم احتواء المفاهيم، كمعنى "الأدبية" على سبيل المثال، فقد أسهمت في إقصاء نصوص عدة من الدراسة الممكنة طالما أن هذه النصوص خرجت عن معيار الأدبية الذي يجري فيه هوى البعض. (16)

- المفارقة لدى الناقد أو الدارس، بين الجانب النظري والجانب العملي، بين امتلاك الجانب النظري والمعطيات والمفاهيم النظرية، وكيفية تطبيقها وتطويعها أثناء إنزالها إلى ميدان الممارسة العملية. (17)

وهذا ما يشهده الواقع الأدبي، فالنقاد والمحللون يعمدوا إلى إفراغ كل ما لديهم من معلومات وما تم الاطلاع عليه من نظريات، دون مراعاة لمتطلبات الحال والواقع الفكري، ودرجة الثقاف أو التخلف في المجتمع، مما يجعلهم يجنحون في أفاق بعيدة. قال المفكر الناقد حسين مروة، ليمنى العيد "نحن بحاجة إلى ممارسات نقدية، لا إلى نظريات في النقد وعظية لنكتب نقداً، ولنترك الآن مهمة تحديد أصول النقد ومنهجه، وواجبات الناقد، ما عليه أن يقول وما عليه أن يدع..... يومئذ يصبح

أو الشعر، كما انقطع محمد ساري إلى تجريب الكتابة الروائية، مع أن مساهماته النقدية تشهد له بحضور متميز. (11)

« وهناك من ينظر للقضية من زاوية أخرى على سبيل المثال الأستاذ "محمد بشير بويجرة" جامعة وهران، حيث يرى أن الإشكال في المسار النقدي والأدبي في الساحة الجزائرية، إنما هو إشكال لغة، لكونها عرفت أوضاعاً خاصة لم تعرفها بقيت الأقطار العربية الأخرى. (12)

- غياب التخصص: وهذا أمر واضح في كل الكتب النقدية الجزائرية، فثمة ما قد نسميه النقد الجامع؛ أي الذي يجمع النصوص الأدبية كلها، ولا يضع أمامه شكلاً معيناً منها، وهكذا تجد كتاباً واحداً يحتوي مقالات نقدية، في أشكال أدبية متعددة: القصة، الشعر، الرواية، دون أن يشكل ذلك حرجاً لصاحبه. (13).

- وقد يكون المشكل وفي ظل غياب التخصص، يعود إلى طبيعة الدراسة النصية، أو الممارسة النقدية، إذ تعتمد إلى فرض منهج نقدي على عمل أو إنتاج أدبي لا يتماشى وإياه، دون فحص أو تمحيص، وإشكالية الضبط المنهجي لمفهوم الممارسة النقدية لا تنطبق على النقد في الجزائر فقط، وإنما على واقع النقد العربي بكامله.

فالضبط المنهجي يقوم على الوعي النقدي الذي يتأصل ويتبلور نتيجة الوعي بالذات، وهو أساس مقومات الشخصية المتشكلة من القيم الحضارية والفكرية والدينية للأمة. (14) ونحن من هذا المنطلق وهذا الاقتناع، نعتقد بأن فرض منهج نقدي، هو عمل غير صائب، وخطوة لا تندرج ضمن المبادئ العلمية السليمة، خاصة ونحن الآن في وقت لم يعد الأمر فيها، مجرد تجريب زخم من الرؤى أو الأدوات النقدية، التي أفرزتها جملة من المناهج الغربية على نتاج الأدب العربي الإسلامي.

عندنا إنتاج نقدي، يصبح بإمكاننا أن نستنتج كل هذه المقولات النظرية، وبشكل أصدق". (18) لا أحد منا ينكر أهمية النظرية والتنظير، ولا ننكر دورها في العملية، فالممارسة بدونها عمياء لا تهتدي إلى الطريق السوي ولكن النظرية هي الأخرى في غياب الممارسة تبقى عرجاء. ولكن لا بد أن ندرك ونعي ما نقرأ، ونعرف ماذا نكتب وكيف نكتب. فالخطر كل الخطر في الولوع بما هو نظري أن يتحول إلى لعبة ذهنية تصبح متكاً للتلذذ والمباهاة والاستعلاء، وقد تصبح في أحسن الأحوال مطية لتلقين دروس للمتلقي بشكل تعليمي مفضوح. وقد يعزى ذلك إلى الانبهار بالنظريات المستجدة على الساحة الأدبية، عربياً وعالمياً.

إذ لا يفترض بالناقد العملي أو التطبيقي، أن يمارس معالجته للنصوص الإبداعية، إلا بعد أن يتثقف ثقافة نظرية شاملة وصحيحة، أن يكون بصيراً بفنون الأدب وأغراضه وتطوره، ومعرفته باللغة ومفرداتها، والبلاغة وفنونها، والكلام وأساليبه، وأن يطلع على جملة من المعارف والعلوم، كالفلسفة ونظرياتنا، وعلم النفس، وكل ما يخالج الشعور الباطني". (19) فيعرف الأنواع الأدبية، وخصائص كل نوع، ومكوناته، وتاريخه، وتطوره، وأهم المبدعين في مجاله، ويعرف دوافع الفن، ووظيفته، ووسائل تأثيره، ويكون قد استوعب علاقة الفن بالحياة والواقع، عبر العصور والحضارات، وطبيعة اللغة الملائمة لكل نوع أدبي.

- ضعف التواصل والتكامل، إذ يستحيل على الناقد الأدبي أن ينشئ أويطور أدواته في ظل الانغلاق الخانق، إذ لا نشكو فقط من ضعف التواصل فيما بيننا وبين البلدان العربية في المجال الثقافي، بل إننا نشكوا من ضعف التواصل

بيننا حتى داخل الوطن، ومن الغريب أن يحدث هذا في وقت أصبح فيه العالم قرية صغيرة. - من طبيعة الكتاب أنه يخدم التواصل والتعارف ولكنه كف ذلك، ولم يعد يلعب هذا الدور، بسبب ثمنه الذي زاد ارتفاعه، مما قلل من إمكانية اقتنائه بالنسبة للمواطن أو الدارس البسيط، وقلة توفر الكتاب، وجود النص كشكل طبوغرافيا، ليكون عينة للدارس، نظراً إلى إشكالية الطبع، لذلك استوجب البحث عن النقد؛ في الرسائل والأطروحات الجامعية، والتي ما تزال مخطوطات لا يطلع عليها إلا جمهور ضئيل من القراء.

خاتمة:

وفي الأخير، إن ما نلاحظه من تفاوت بين النقد في المشرق العربي وفي المغرب سواء على مستوى الوعي الأدبي والفكري أو على مستوى الممارسة النقدية التي لم تكن مبنية في معظمها على الفكر النقدي القادر على التمثل والإستعاب، ومصدره هذا هو انعدام نظريات نقدية فلسفية، تستند إلى المدارس النقدية الحديثة، فرغم الدراسات التي كتبت بقصد توضيح أصول أزمة النقد الأدبي في الجزائر، فإن الحاجة ما زال ماسة لإعادة النظر في المسلمات والأسس التي تركز عليها مفاهيمنا الثقافية، ومنطلقاتنا الفكرية، المسؤولة عن هذا المأزق الذي نستشعره في كل مجالات الإبداعية والممارسات النقدية.

إذ يمكن القول إن النقد اليوم، إنما يقوم على مرجعية معرفية متنوعة، يصعب الخوض فيه، من دون زاد مسبق يتمثل في امتلاك ناصية اللغة الجمالية، مع الفهم الدقيق، واختيار جيد وسليم للمفاهيم والمصطلحات النقدية، واختبار مطول للمناهج النقدية للوقوف على كفاءاتها.

هوامش البحث:

- 1- ينظر: حسن جمعة، المسبار في النقد الأدبي (دراسة في نقد النقد للأدب القديم وللتناص)، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق 2003، ص8.
- 2- ينظر: المرجع نفسه، ص8.
- 3- ينظر: المرجع نفسه، ص9.
- 4- ينظر: غالي شكري، برج بابل النقد والحداثة الشريد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، ص74.
- 5- ينظر: حسن جمعة، المسبار في النقد الأدبي، ص131، 130.
- 6- ينظر: إشكالية النقد الجزائري المعاصر، حوار أجرته جريدة الخبر مع الأستاذ إسماعيل غموقات، جريدة الخبر العدد الصادر بتاريخ 2012/12/07.
- 7- ينظر: المرجع نفسه.
- 8- ينظر: المرجع نفسه.
- 9- ينظر: المرجع نفسه.
- 10- ينظر: إبراهيم رماني: أسئلة الكتابة النقدية، المؤسسة الجزائرية للطباعة، منشورات المجاهد الأسبوعي.
- 11- ينظر: أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985.
- 12- ينظر: المرجع نفسه.
- 13- ينظر: أحمد كمال زكي، النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- 14- محمد مصايف: فصول في النقد الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1981.
- 15- ينظر: محمد ناصر: رمضان حمود، حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985.
- 16- ينظر: عبد الرسول الغفاري، النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت 203.
- 17- ينظر: المرجع نفسه.
- 18- عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعي، نظرية وتطبيق، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، بيروت 2006.
- د. عمر بن قينه: في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1.
- 19- المرجع نفسه.